

البَابُ الثَّالِثُ

تَحْقِيقُ كَلِمَةِ «الصُّوفِي»

اسْتُعْمِلَ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ كَلِمَاتٌ كَثِيرَةٌ مِثْلُ: الذَّاكِرِينَ، وَالصَّابِرِينَ، وَالخَاشِعِينَ، وَالصَّادِقِينَ، وَالْقَانِتِينَ، وَالْمُوقِنِينَ، وَالْمُخْلِصِينَ، وَالْمُحْسِنِينَ، وَالخَائِفِينَ، وَالْوَجِلِينَ، وَالْعَابِدِينَ، وَالْمُتَوَكِّلِينَ، وَالْمُقَرَّبِينَ، وَالْأَبْرَارَ، وَالْفُقَرَاءَ، وَالْعِبَادَ، وَالْأَوْلِيَاءَ؛ وَكَانَ السَّلَفُ الصَّالِحُونَ يَخْتَارُونَ مِنْهَا بَعْضَ الْكَلِمَاتِ حِينًا فحِينًا عِنْدَ التَّحَادُثِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَلَكِنْ أَصَابَتْ شُهْرَةً وَاسِعَةً كَلِمَتَانِ: الْفُقَرَاءُ وَالْعِبَادُ. مِثَالُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِيمَا يَلِي:

١ - قَالَ الشَّيْخُ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ مَرَّةً:

(يَا مَعْشَرَ الْفُقَرَاءِ إِنَّكُمْ تَعْرِفُونَ بِاللَّهِ وَتُكْرَمُونَ لِلَّهِ، فَانظُرُوا كَيْفَ تَكُونُونَ مَعَ اللَّهِ إِذَا خَلَوْتُمْ بِهِ).

٢ - قَالَ الشَّيْخُ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي سِيرَةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (ص ٢١٦):

(قَالَتِ الشَّفَاءُ بِنْتُ عَبْدِ اللَّهِ: رَأَيْتُ فَتِيَانًا يَقْصِدُونَ فِي الْمَشْيِ وَيَتَكَلَّمُونَ زُوِيدًا، قَالَتْ: مَا هَؤُلَاءِ؟ قَالُوا: نَسَاكٌ (يَعْنِي عِبَادًا)).

أَمَّا كَلِمَةُ: (الْفُقَرَاءُ) فَتَطْلُقُ عَلَى مَنْ يَتَّصِفُونَ بِالْفَقْرِ، وَأَمَّا الْعِبَادُ فَهَمُ الَّذِينَ يَشْتَغِلُونَ بِالْعِبَادَةِ، فَكَانَتِ الْكَلِمَتَانِ تُشِيرَانِ إِلَى صِفَاتِ مَوْصُوفِيهِمَا، وَلِذَا كَانَ السَّلَفُ الصَّالِحُونَ يَجْتَنِبُونَ مِنَ الْأَسْمَاءِ الدَّالَّةِ عَلَى

صِفَاتِهِمِ الْبَاطِنِيَّةِ وَمَقَامَاتِهِمْ خَشْيَةَ الرَّيَاءِ مُقْتَضِي الْأَدَبِ أَنْ يُنَادَى الْإِنْسَانُ حَسَبَ هَيْئَتِهِ الظَّاهِرَةِ، وَالْقَدْرَ الْمَشْتَرِكِ الظَّاهِرِ فِيمَا بَيْنَهُمْ لِبَاسِ الصُّوفِ، كَانُوا يَلْبَسُونَهُ عَلَى طَرِيقِ السُّنَّةِ، فَقَدْ نَقَلَ الشَّيْخُ عَلِيُّ الْهَجَوِيرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كَشْفِ الْمَحْجُوبِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِلِبْسِ الصُّوفِ تَجِدُونَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ فِي قُلُوبِكُمْ».

[كشف المحجوب مترجم ص ٧٣]

فَنظَرًا لِأَنَّ الصُّوفَ كَانَ مِنْ عَادَاتِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَشِعَارًا لِلْأَوْلِيَاءِ وَالْأَصْفِيَاءِ، نُسِبُوا إِلَى لِبَاسِهِمُ الظَّاهِرِ، فَصَارَ الصُّوفِيُّ اسْمًا عَامًّا وَمُجْمَلًا يَنْبِئُ عَنْ جَمِيعِ عُلُومِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ وَجَمِيعِ أَسْمَاءِ أَسْمَاءِهِمْ الْمُحْمُودَةِ.

قال الشيخ أبو نصر السراج الطوسي رحمه الله: ألا ترى أن الله تعالى ذكر طائفة من خواص أصحاب عيسى عليه السلام، فنسبهم إلى ظاهر اللبسة، فقال عز وجل: ﴿إِذْ قَالَ الْخَوَارِجُ﴾ الآية [المائدة: ١١٢]. وكانوا قوماً يلبسون البياض، فنسبهم الله تعالى إلى ذلك ولم ينسبهم إلى نوع من العلوم والأعمال والأحوال التي كانوا بها مترسمين، فكذلك الصوفية عندي.

[اللمع ص ٢١]

فَبُتَّتْ مِنَ الْأَدَلَّةِ الْمَذْكُورَةِ أَنَّ لَفْظَ الصُّوفِيِّ مُشْتَقٌّ مِنَ الصُّوفِ، هَذَا هُوَ أَقْوَى الْأَقْوَالِ وَأَثْبَتُهُ لُغَةٌ الشَّيْخِ أَبُو بَكْرٍ إِبْرَاهِيمُ الْبُخَارِيُّ الْقَلَابَازِيُّ فِي كِتَابِهِ: (التَّعَرُّفُ لِمَذْهَبِ التَّصَوُّفِ) وَمُلْخَصُهُ مَا يَأْتِي:

١ - قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِنَّ لَفْظَ الصُّوفِيِّ مُشْتَقٌّ مِنَ الصِّفَاءِ وَعَلَّلُوا أَنَّ مَقْصُودَهُ تَزْكِيَةَ الْبَاطِنِ، وَلَوْ كَانَ كَذَا فَلْيَكُنِ اللَّفْظُ «صَفَاوِيًّا».

٢ - قَالَ الْبَعْضُ: إِنَّ لَفْظَ الصُّوفِيِّ مُشْتَقٌّ مِنَ الصِّفِّ وَعَلَّلُوا أَنَّهُمْ يَكُونُونَ

في الصّوفِ الأولى يَوْمَ الْقِيَامَةِ (إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى)، وَلَوْ كَانَ كَذَا فَلْيَكُنْ هَذَا اللَّفْظُ «صَفِيًّا».

٣ - قَالَ الْبَعْضُ: إِنَّ لَفْظَ الصَّوْفِيِّ مُشْتَقٌّ مِنَ الصِّفَةِ وَعَلَّلُوا أَنَّهُمْ تَذَكَارُ أَصْحَابِ الصِّفَةِ وَلَوْ كَانَ كَذَا فَلْيَكُنْ هَذَا اللَّفْظُ «صَفِيًّا».

٤ - قَالَ الْبَعْضُ: إِنَّ هَذَا اللَّفْظَ مُشْتَقٌّ مِنَ الصُّوفِ وَعَلَّلُوا أَنَّهُمْ يَلْبَسُونَ الصُّوفَ، وَالْمَنْسُوبُ إِلَى الصُّوفِ «صَوْفِيٌّ» فَعَلِمَ أَنَّ لَفْظَ «الصَّوْفِي» مُشْتَقٌّ مِنْ لَفْظِ الصُّوفِ، وَغَرَضُهُ الصِّفَاءُ، وَلَهُ نِسْبَةٌ إِلَى أَصْحَابِ الصِّفَةِ وَمَنْزِلَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الصِّفِّ الْأَوَّلِ (إِنْ شَاءَ اللَّهُ).

وَفِي نِسْبَةِ لَفْظِ «الصَّوْفِي» إِلَى الصُّوفِ حِكْمٌ عَدِيدَةٌ مِنْهَا:

١ - الصُّوفُ يَكُونُ لِينًا وَالصَّوْفِيُّ هُوَ الَّذِي يَجْتَهِدُ لِتَلْيِينِ الْقَلْبِ.

٢ - الصُّوفُ يَكُونُ أبيضَ وَالصَّوْفِيُّ مَنْ يَجْتَهِدُ لِتَبْيِيضِ الْقَلْبِ كِبْيَاضِ الصُّوفِ.

٣ - الصُّوفُ لَا يَقْبَلُ شَيْئًا مِنَ اللَّوْنِ بِسَهُولَةٍ وَالصَّوْفِيُّ هُوَ الَّذِي صُبِغَ بِصِبْغَةِ اللَّهِ حَتَّى بِحَيْثُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُوَثَّرَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ.

ذَكَرُ أَسْئَلَةٍ مَشْهُورَةٍ حَوْلَ لَفْظِ «الصَّوْفِي» مَعَ أَجْوِبَتِهَا:

السُّؤَالُ الْأَوَّلُ: هَلْ لِمَأْخُذِ لَفْظِ الصَّوْفِيِّ ذِكْرٌ فِي الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ؟

الجواب: نَعَمْ. الْأَلْفَاظُ الَّتِي اسْتَقْتَمَتْ مِنْهَا كَلِمَةُ الصَّوْفِيِّ مَذْكُورَةٌ فِي

الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ، وَالتَّفْصِيلُ مَا يَأْتِي:

١ - قِيلَ: إِنَّ الصَّوْفِيَّ مَأْخُودٌ مِنَ الصِّفِّ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

الَّذِينَ يُقْنَلُونَ فِي سَبِيلِهِ. صَفًّا كَأَنَّهُمْ بَنِينَ مَرْصُورًا﴾ [الصف: ٤].

٢ - وَعَلَى الْقَوْلِ الثَّانِي؛ لَفْظُ الصَّوْفِيِّ مَأْخُودٌ مِنَ الصِّفِّ، فَفِي الْحَدِيثِ

عَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَغَيَّرَ

اللَّوْنِ فَقَالَ: «ذَهَبَ صَفْوُ الدُّنْيَا وَبَقِيَ كَدْرُهَا فَالْمَوْتُ الْيَوْمَ تَحْفَةُ لِكُلِّ مُسْلِمٍ» .

[الرسالة القشيرية]

٣- وبوفقِ القَوْلِ الثَّالِثِ لَفْظُ الصُّوفِيِّ مَأْخُودٌ مِنَ الصِّفَةِ . وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ؛ وَقَفَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَصْحَابِ الصِّفَةِ فَرَأَى فَقَرَهُمْ وَجَهَدَهُمْ وَطَيَّبَ قُلُوبَهُمْ فَقَالَ: «أَبَشِرُوا يَا أَصْحَابَ الصِّفَةِ فَمَنْ بَقِيَ مِنْ أُمَّتِي عَلَى النَّعْتِ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ رَاضِيًا بِمَا فِيهِ فَإِنَّهُ مِنْ رُفَقَائِي فِي الْجَنَّةِ» .

[كشف المحجوب]

٤- وبوفقِ القَوْلِ الرَّابِعِ لَفْظُ الصُّوفِيِّ مَأْخُودٌ مِنَ الصُّوفِ . وَفِي الْحَدِيثِ: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَلْبَسُ الصُّوفَ وَيُرَكِّبُ الْحِمَارَ) .

السؤال الثاني: لَوْ كَانَتْ لِلْفِظِ الصُّوفِيِّ أَهْمِيَّةٌ لَوْجَدَ بَعِينُهُ فِي الْقُرْآنِ

وَالْحَدِيثِ؟

الجواب: عَدَمٌ وَجُودٌ لَفِظِ بَعِينِهِ فِي الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ لَيْسَ دَلِيلًا عَلَى عَدَمِ أَهْمِيَّتِهِ وَعَلَى كَوْنِهِ غَيْرَ إِسْلَامِيٍّ ، فَمَثَلًا لَفِظُ: «المتكلمين» بَعِينُهُ لَمْ يَذْكَرْ فِي الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ ، فَهَلْ صَارَ عِلْمُ الْكَلَامِ غَيْرَ إِسْلَامِيٍّ؟ وَالْحَقِيقَةُ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ إِثْبَاتُ الْعُقَائِدِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِدُونِهِ ، وَهَكَذَا لَفِظُ: «النَّحْوِ» لَيْسَ بِمَوْجُودٍ فِي الْقُرْآنِ ، فَهَلْ أَصْبَحَ عِلْمُ النَّحْوِ عَبَثًا غَيْرَ مُفِيدٍ مَعَ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُفْهَمَ الْقُرْآنُ وَالْحَدِيثُ بِدُونِهِ .

السؤال الثالث: لَمْ يَكُنْ يُطْلَقُ «الصُّوفِي» فِي قَرْنِ الصُّحَابَةِ عَلَى

أَحَدٍ؟

الجواب: كَانَ لِصُحْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ مَزِيَّةٌ خَاصَّةٌ ، فإِطْلَاقُ غَيْرِ لَفِظِ الصُّحَابِيِّ عَلَى مَنْ تَشَرَّفَ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ يُعْتَبَرُ سُوءَ الْأَدَبِ فِي حَقِّهِ . كَانَ

الصحابة رضي الله عنهم أجمعين ببركة هذه النسبة والصحبة رؤساء وقواد الزهاد والعبادين والمتوكلين والصابرين والمطيعين والفقراء، حالهم أفضل وأعلى من أحوال الجميع، فغير مناسب تفضيلهم بشيء غير هذه الفضيلة. قال النبي ﷺ: «خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» متفق عليه.

[مشكاة المصابيح ج ٣ ص ١٩٩٥ طبع بيروت]

فجميع سعادات الدنيا وخيراتها لا يمكن أن تُصبح بديلاً صالحاً من صحبة رسول الله ﷺ. سئل الإمام الشافعي رحمه الله: (من الأفضل معاوية بن أبي سفيان أو عمر بن عبد العزيز)؟ فأجاب: إن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه لما خرج مع رسول الله ﷺ إلى الجهاد فما أصاب من التراب في أنفه، ذلك التراب أفضل من عمر بن عبد العزيز رحمه الله. ولذا قال العلماء: إن الأتقياء والأصفياء والأولياء من جميع الأرض، لا يمكن أن يبلغوا رتبة أدنى صحابي من أصحاب الرسول ﷺ.

والذين تشرفوا بصحبة أصحاب الرسول ﷺ سُموا التابعين، والذين تشرفوا بصحبة التابعين سُموا تبع التابعين، فهذه النسب الثلاث تنبئ عن الخير لقول النبي ﷺ المذكور أعلاه. ولذا كان كل شخص سعيداً لنفسه بندا هذه النسبة، واشتهر مشايخ الأمة بعد الصحابة والتابعين باسم الصوفية، وذلت الألسنة بهذه الكلمة قبل القرن الثاني الهجري وفقاً لتحقيق الإمام القشيري.

السؤال الرابع: متى استعمل لفظ الصوفي لأول مرة؟ قيل: إنه اختراع أهل بغداد؟

الجواب: ذكر الشيخ أبو النصر السراج الطوسي رحمه الله ناقلاً

عن أخبار مكة برواية محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله وأناس آخرين: إن مكة قد خلت قبل الإسلام في وقت من الأوقات حتى كان لا يطوف بالبيت أحد، كان يجيء من بلد بعيد رجل صوفي يطوف بالبيت وينصرف، فإن صح هذا فهو يدل على أن هذا الاسم كان يُعرف قبل الإسلام، وكان يُنسب إليه أهل الفضل والصلاح، والله أعلم.

[اللمع ص ٢٢]

وأما في زمن الشيخ الحسن البصري رحمه الله الذي تشرف بصحبة ثمانية عشر صحابياً بدرياً، واستفاض من علي كرم الله وجهه أيضاً باطنياً، فاستعمال لفظ الصوفي أمر متيقن. قال الشيخ أبو النصر السراج الطوسي رحمه الله:

(وأما قول القائل: إنه اسمٌ محدثٌ أحدثه البغداديون، فمحالٌ لأن في وقت الحسن البصري رحمه الله تعالى كان يعرف هذا الاسم، وكان الحسن قد أدرك جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ ورَضِيَ عَنْهُمْ، وقد رَوَى عَنْهُمْ أَنَّهُ قَالَ: رأيتُ صوفياً في الطواف فأعطيته شيئاً فلم يأخذه وقال: معي أربعة دوانيق فيكفيني ما معي).

[اللمع ص ٢٢]

فعلِمَ أَنَّ لَفْظَ الصَّوْفِيِّ كَانَ يَسْتَعْمَلُ أحياناً في زمن التابعين، وكثُرَ استعماله في زمن تبع التابعين، ثم اشتهر بعده قبل القرن الثاني من الهجرة. كان الإمام سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ رحمه الله يقول لشيخ في وقته: «أبو هاشم الصوفي»، والإمام أحمد بن حنبل رحمه الله كان يقول لشيخ في وقته: «أبو حمزة البغدادي الصوفي رحمه الله».

الصوفي من هو؟

سُئِلَ تلميذُ الشَّيْخِ الحَسَنِ البَصْرِيِّ عبد الواحد بن زيد رحمهم الله

تعالى: الصوفية من هم؟ فقال: هم الذين يقومون بعقولهم على عزائمهم ويستقيمون بقلوبهم عليها، ويتمسكون بمولاهم اتقاء من شرور أنفسهم.

سئل ذو النون المصري رحمه الله تعالى؟ فقال: الصوفي الذي لا يتعبه الطلب ولا يخزن بسبب الجرماني.

سئل أبو محمد رُويم؟ فقال: الذي يوافق عمله قوله.

وأجاب عارف عن هذا السؤال: إن الصوفي الذي يصفو في الكدر، ويملاً بالفكر، لحصول قرب الله تعالى منقطع من البشر، التراب والذهب سواء في النظر.

قال الشيخ شبلي رحمه الله: الصوفي الذي ينقطع عن الخلق ويتصل بالحق.

خلاصة الكلام:

الصوفي الذي يذكره صوت الحيوانات، وكل طرب ومزمار، وتغريد العصافير وعرف الأزهار وتمایل الخضراء ولمعان الجواهر ونور الشمس والسماء والسمك، ولون الأشجار والزجاج والحجر، وشدة الحجر، والسعادة والشقاوة ونعومة الأرض وحرارة النار، وجريان البحر، والكواكب السماوية، وعلو الجبال والصحاري والمخدات والحريف والربيع، وبالجملة كل شيء يذكره ذاتاً غير مدركة بالأبصار.

الله الله الله.